

ملخص رسالة دكتوراه بعنوان:

ظاهرة الخروج اليهودي من فلسطين في العصور القديمة - دراسة تاريخية تحليلية للعوامل والنتائج

الباحث د. هانى عبد العزيز السيد *

تحمل الدراسة عنوان " ظاهرة الخروج اليهودي من فلسطين فى العصور القديمة - دراسة تاريخية تحليلية للعوامل والنتائج". وتهدف الدراسة لبحث عوامل الخروج اليهودي من فلسطين خلال عصور التواجد اليهودي فى فلسطين قديماً، وهى العصر الآشورى والبابلى، العصر اليونانى، وأخيراً العصر الرومانى. كما يهدف البحث كذلك لدراسة نتائج هذا الخروج فى بلدان التجمع الجديدة، سواء من حيث التواجد أو من حيث قيام علاقات متبادلة بين اليهود فى فلسطين وخارجها.

وقد قسّم الباحث بحثه إلى مدخل وستة فصول، كانت على النحو التالى:

المدخل: وجاء يحمل عنوان " اتجاهات كتابة التاريخ اليهودي لدى المؤرخين اليهود فى العصر الحديث".

الفصل الأول: وجاء يحمل عنوان " مصطلحات الدراسة من المنظورين اللغوي والتاريخي".

الفصل الثانى: وجاء تحت عنوان " عوامل الخروج اليهودي من فلسطين فى العصور الآشورى والبابلى".

الفصل الثالث: وحمل عنوان "عوامل الخروج اليهودي من فلسطين فى العصر اليونانى".

الفصل الرابع: وجاء تحت عنوان " مراكز الخروج اليهودي من فلسطين فى العصر اليونانى".

الفصل الخامس: وجاء يحمل عنوان "عوامل الخروج اليهودي من فلسطين فى العصر الرومانى".

الفصل السادس: وحمل عنوان "مراكز الخروج اليهودي من فلسطين فى العصر الرومانى".

هذا، وقد توصل الباحث من بحثه إلى عدد من النتائج كان أهمها ما يلى:

(١) أن مصطلح خروج " יציאה" يكاد يكون قاصراً فى استخداماته على الإشارة إلى " الخروج من مصر" (יציאת מצרים)، كما أن مصطلح منفى "גלות" لم يرد فى أسفار العهد القديم، كمعنى أو مبنى قبل سفر الملوك الثانى (٢٥ / ٢٧)، كما اعتاد العهد القديم استخدام الفعل "ללה" و"לה" للتعبير عن الدخول إلى فلسطين "أرض كنعان" والخروج منها.

* دكتور بقسم اللغة العبرية كلية الآداب جامعة عين شمس.

(٢) أن عوامل الخروج اليهودي من فلسطين خلال عصور الدراسة (الآشوري والبابلي، واليوناني والروماني)، خضعت دائماً لمجموعة من العوامل السياسية، والدينية، والاجتماعية والاقتصادية.

أولاً- العامل السياسي:

(أ) العصران الآشوري والبابلي:

كانت الأوضاع السياسية عاملاً مهماً من عوامل خروج اليهود من فلسطين. وقد تمثل هذا العامل في السياسة الداخلية والخارجية لكل من مملكتي يهودا والسامرة.

فعلى مستوى السياسة الداخلية، شهدت المملكتان صراعاً مضنياً على السلطة، سواء للسيطرة على السلطة الداخلية، أو للهيمنة من جانب مملكة على الأخرى. وعلى مستوى السياسة الخارجية، شهدت المملكتان تأرجحاً في ولاء الحكام للممالك الكبرى، كما برز نوع من الانفصال في ذلك الولاء بين أهواء الحكام ورغبات المواطنين. فدخل هؤلاء الحكام معارك لا صلة لهم بها، فضلاً عن التردد في دفع الجزية للدول الكبرى، وما تبعه من محاولات تمرد متكرره.

(ب) العصر اليوناني:

ازدادت عمليات الخروج اليهودي من فلسطين قد ازدادت أثناء عمليات التحول السياسي، ثم تصاعد معدل الخروج اليهودي من فلسطين بشكل ملحوظ، بعد نجاح التمرد المكابي في الاستقلال النوعي بيهودا عن المملكة السلوقية.

وقد تم نسيان مبادئ التمرد المعلنة، وحلت محلها آمال وتطلعات السلطة والمال. وسعى أفراد الأسرة الحشمونية لإرضاء السلوقيين، معلنين تبعيتهم لهم، ووطأوا بأقدامهم رؤوس المواطنين الكادحين، وهو ما أدى إلى:

- خوض غمار حروب طاحنة لا يجنى اليهود من ورائها أية منافع.
- الخضوع المذل للملوك السلوقيين.
- ازدياد الصراعات الأسرية حول كرسي العرش، مما أدى لاندلاع الفتن والاعتقالات السياسية.

(ج) العصر الروماني:

شهدت فلسطين في العصر الروماني فترات شديدة التوتر، سواء في عهد أسرة هيرود، أو في فترتي الولاة الأولى والثانية، وازداد الخضوع عن طريق أفراد تلك الأسرة ذات الأصل الأدومي.

كما شهدت هذه الفترة الكثير من أعمال التمرد والشغب والرشوة والفساد.

ثانياً- العامل الدينى:

يعتبر العامل الدينى من أهم العوامل التى دفعت اليهود للخروج من فلسطين خلال فترات الدراسة. وقد تمثل ذلك فيما يلى:

(أ) العصران الآشورى والبابلى:

تجلى الفساد الدينى فى العصرين الآشورى والبابلى فى محورين، هما:

- التنافر بين السياسة والدين، سواء تمثل ذلك فى دعم الساسة لانتشار العبادات الوثنية، بما أقدموا عليه من زواج بأجنبيات أنت كل منهن بعبادتها معها، ولم تكتف بذلك، بل شجعت على انتشار تلك العبادة بين المواطنين، وأقامت لها المعابد، مما أدى لانتشار العبادات الوثنية مثل: عبادة البعالم والعشتار وغيرها.
- الصدام بين المؤسسات السياسية الرسمية، والمؤسسات الدينية المتمثلة فى الأنبياء. وهو ما تجلى فى النقد اللاذع الذى وجهه الأنبياء لهذه الدوائر السياسية. ومحاولاتهم المضنية مواجهة اعوجاج الحكام من جانب، والمواطنين من جانب آخر.

(ب) العصر اليونانى:

رغم ما شهدته الفترة السلوقية من تعديت على الحياة الدينية، تمثلت فى سرقة ودائع المعبد، وشراء منصب الكاهن الأكبر، فإن تلك التعديت كانت تتم بالتعاون بين المتأغربين والسلطات اليونانية. وقد تحول التمرد، الذى أعلن من أجل الحرية الدينية، إلى رذيلة وفساد. فانتهك أفراد الأسرة الحشمونية العقيدة اليهودية، وهو ما تمثل فيما يلى:

- التعدى على حرمة المعبد وودائعه.
- التعدى على الكهانة الكبرى، فتولاها من لا يصلح لها، ونقصد أفراد الأسرة الحشمونية.
- استباحة الحرب يوم السبت.
- قطع العهود مع الأجانب.
- انقسام رجال الدين لفرق متناحرة.
- سهولة تحول أفراد الأسرة الحشمونية بين المذاهب الدينية.

(ج) العصر الرومانى:

شهد هذا العصر المزيد من التعديت على الديانة اليهودية، على المستويين الداخلى والخارجى. فعلى المستوى الداخلى ساد الانقسام الدينى أكثر من ذى قبل،

وظهرت فرق دينية جديدة، كان من أضلاعها جناح السيكايم الذى تميز بالتطرف والاعتقالات، مما دفع الكثيرين للفرار خارج فلسطين. كما شهد هذا العصر انقساماً فكرياً أدى لظهور الكثير من الحركات المسيحانية، الداعية لانتظار الخلاص من هذا العالم والتوجه لعالم جديد تملؤه آمال بحياة أفضل.

وعلى المستوى الخارجى، أباح كثير من الولاة العبادات الوثنية، وعملوا على نشرها، أمثال هيرود. كما ازداد تلاعب الولاة بمنصب الكهانة الكبرى، وامتدت أيديهم لودائع المعبد اليهودى.

ثالثاً- العامل الاجتماعى:

شكّل العامل الاجتماعى مقوماً مهماً من مقومات دفع اليهود للخروج من فلسطين عبر فترات البحث. وذلك على النحو التالى:

(أ) العصران الآشورى والبابلى:

انتشرت الأمراض الاجتماعية فى المجتمع اليهودى فى تلك الفترة، حيث غابت العدالة الاجتماعية، ووضحت بين صفوفه الطبقية، وانتشرت الرشوة، وفسد النظام القضائى، وانتشر الربا وغش السلع. الأمر الذى جعل من بعض عمليات الإصلاح أمراً عسيراً على دعاة الإصلاح، وعبئاً ثقيلاً على كاهل البسطاء.

(ب) العصر اليونانى:

كانت إحدى مبادئ التمرد المكابى، هو محاربة مظاهر الأغربة التى انتشرت بين اليهود. إلا إن نجاح التمرد كان بمثابة إعلان صريح، ودعوة للاضطباع بالصبغة الهلينية، وهو ما تمثل فيما يلى:

- نهل كثير من أفراد الأسرة الحشمونية من ينابيع الثقافة الهلينية.
- انهيار الروابط الاجتماعية لأكبر الأسر اليهودية، الأسرة الحشمونية، فلم يتورع الرجل عن أن يقتل أخاه من أجل كرسى العرش.

(ج) العصر الرومانى:

ازداد انقسام المجتمع اليهودى، خلال هذا العصر، ووضحت طبقته، وازدادت الهوة الاجتماعية بين الطبقة العليا والدنيا.

رابعاً- العامل الاقتصادى:

يعتبر العامل الاقتصادى، هو أهم العوامل التى دفعت اليهود للخروج من فلسطين خلال فترات الدراسة. وذلك على النحو التالى:

(أ) العصران الآشورى والبابلى:

عانى المواطنون اليهود فى فلسطين فى هذه الفترة من تزايد معدل الانهيار الاقتصادى، وهو ما تمثل فى:

- الاندفاع دون وعى نحو الحروب، وما تعنيه من مزيد من النفقات يتحملها المواطن البسيط.
- تزايد الضرائب، سواء من حيث الكم أو الكيف.
- ارتفاع أعداد المعدمين، ومن يفضلون العبودية مدفوعة الأجر، على الحرية بلا طعام أو شراب.
- إسراف وبزخ الهيئات الحاكمة دون مراعاة للطبقات الفقيرة والمعدمة.

(ب) العصر اليونانى:

اتسمت هذه الفترة بضيق الأحوال، نتيجة فرض أفراد الأسرة الحاكمة لمزيد من الضرائب للإنفاق على الحروب، والمتعة الشخصية. هذا فى مقابل الانتعاش الاقتصادى فى بلدان أخرى مجاورة كمصر.

(ج) العصر الرومانى:

اتسمت هذه الفترة من الناحية الاقتصادية، بنقلص مساحات الأراضى، وازدياد الأعباء الضريبية، المباشرة وغير المباشرة، الأمر الذى كان له أكبر الأثر على ما وصلت إليه الأحوال من سوء.

ومجمل القول، هو أن هناك عوامل متعددة، سياسية، ودينية، واجتماعية واقتصادية، تضافرت معاً لتشكل منظومة الخروج اليهودى من فلسطين إلى جهات شتى خلال عصور الدراسة .

(٣) يرجح الباحث غلبة العامل الاقتصادى على العوامل الأخرى، فالوضع الاقتصادى للمجتمع هو الذى يحدد صور نظامه ودرجة حضارته وثقافته.

وكان الانتاج المادى لآى جماعة هو الذى يحدد مفهوم نظامها الاجتماعى والسياسى، كما أن كل ما يلحق بالمجتمع سواء ثورات أو انقلابات سببه الأساسى أوضاع العمل والانتاج والملكية الاقتصادية، وأن النظام السياسى القوى يقوم فى الأساس على نظام اقتصادى راسخ ومتين، أى أن العامل الاقتصادى هو العامل المؤثر الذى يحرك العامل السياسى ويتحكم فيه.

فمن الناحية السياسية، كانت فلسطين مطعماً اقتصادياً للقوى الكبرى بالدرجة الأولى، ولا ننسى أن أساس الحروب والفتوحات هنا هو المطامع الاقتصادية. فلم تكن هناك ديانة يرغب الآشوريون أو البابليون أو المصريين، أو اليونانيون ومن ورائهم الرومان فى نشرها، كما حدث بالنسبة للفتوحات الإسلامية على سبيل المثال.

ومن الناحية الدينية، فإن العلاقة السلبية التى نشأت بين السياسة والدين، كانت نتيجة هجرة الملوك وأتباعهم للتعاليم الدينية، والبحث عن المتع والشهوات والمنافع الاقتصادية. وخاصة أن دور الكهنة فى المجتمع كان قد تحول من دور دينى فى المقام الأول، إلى دور اقتصادى، دور الباحثين عن الثراء. وبالتالي بدأوا فى مملأة الحكام على حساب وظائفهم الدينية وعلى حساب الطبقة الدنيا، التى بدأت فى النشأة والبروغ. أما الأنبياء فكانت معظم دعاوهم - فى الفترة القصيرة التى ظهوروا فيها - موجهة لضد هؤلاء الملوك، ومواجهة الطبقة الثرية التى تجذب المجتمع نحو الهاوية، ولكن دون جدوى.

أما من الناحية الاجتماعية، فكان فى الانهيار الاقتصادى، وانخفاض معدل التوازن الاقتصادى، بداية المشكلات الاجتماعية التى أخذت تطفو على السطح. وبدا نوع من الانهيار الاجتماعى تمثل فى ظهور الطبقة فى المجتمع اليهودى، كما كان أساس أعمال التمرد الاجتماعى التى أبداها الفقراء داخل المجتمع اليهودى.

خلاصة الأمر، أن العامل الاقتصادى كان هو أبرز العوامل التى دفعت المجتمع اليهودى فى فلسطين للانهيار، ودفعت الكثيرين لترك ما يسمى " الأرض الموعودة !! " والخروج لبلدان أخرى تحقق لهم حياة اقتصادية أفضل.

وليس أدل على ذلك، أن تلك الظاهرة تكررت فى العصر الحديث عند ظهور الصهيونية التى دعت اليهود للعودة إلى فلسطين فى نهاية القرن التاسع عشر، ولكن الذى حدث فى أرض الواقع، وكما تثبته الأرقام والوقائع، أن غالبية اليهود، إما هاجروا إلى الأرض الجديدة، فى ذلك الوقت (أمريكا) أو فضلوا البقاء حيث هم، وحيث ينعمون بالرخاء الاقتصادى وحسن المعاملة، فى دول غرب أوروبا. ونقصد بذلك أنه من بين ١٣ مليون يهودى فى العالم لا يعيش حالياً فى الدولة اليهودية أكثر من خمسة ملايين يهودى.

(٤) كان اليهود دائماً ما يسعون للاندماج فى المجتمعات الجديدة التى يدخلونها فى العصور القديمة. فاندمجوا فى بابل ورفضوا العودة منها. واندمجوا فى مصر وسوريا واليونان فى العصر اليونانى، ولم يحاولوا العودة إليها، حتى حينما وجّه شمعون المكابى الدعوة إليهم للعودة إلى فلسطين، لم يردوا على دعوته. ونفس الحال فى العصر الرومانى، حيث اندمج اليهود فى شتى أنحاء الأرض، وهو ما أكدته البحث، حيث واصلوا اندماجهم فى كل من مصر، ولم يفكر اليهود فى تركها والعودة لفلسطين، رغم أحداث الفتنة التى وقعت على أراضيها، وكانوا هم شريكاً فيها، ورغم ما أصاب اليهود من جرائها. كما واصلوا اندماجهم فى كل من سوريا وبابل. وأظهروا اندماجاً كبيراً فى مدن روما فى ذلك العصر.

(٥) كان اليهود هم السبب الرئيسى لاندلاع التوترات بينهم وبين غيرهم من المواطنين فى بلدان إقامتهم الجديدة. وهو ما تجلى فى عصر كل من يوحنا هيركانوس الأول. وما كان من مصادمات فى الإسكندرية نتيجة زيارة أجريا الأول المفلس لها، وما قام به اليهود من احتفال مستقر على شرف هذا الرجل معتبرينه ملكاً لهم.

(٦) رغم ضعف العلاقات التى كانت تربط بين اليهود خارج فلسطين ويهود فلسطين، إلا أن هذه الصلات كانت دائماً بمثابة وبال على اليهود خارج فلسطين. فهذه العلاقات كانت دائماً ما تدفع الحكام اليهود، خاصة أفراد الأسرة الحشمونية، لاستغلالها على الصعيد السياسى لخدمة أغراضهم وأهدافهم، سواء كان ذلك للمصلحة الشخصية أو لصالح الملوك السلوقيين الموالين لهم. ويشهد على ذلك دخول يوحنا هيركانوس غمار حرب ضد البارثيين جنباً إلى جنب مع انطيوخوس سيدتس، محاولاً التأثير على يهود المنطقة، ودفعهم للتخاذل، وعدم مشاركة البارثيين الحرب، وهو ما يؤثر بالسلب على مصالح اليهود فى هذه المنطقة.

(٧) كانت العلاقات القائمة بين اليهود خارج فلسطين ويهود فلسطين علاقات من طرف واحد، علاقات اعتمدت على التمويل والمساندة الخارجية، الأمر الذى دفع قادة اليهود فى فلسطين لاستخدامهم، كما أوردنا، لخدمة مصالحهم الشخصية. والحقيقة، أن هذه القضية الجوهرية التى تبرزها العلاقة بين الطرفين، ألا وهى من يدعم من؟ أو من يجب أن يدعم من؟ قضية قديمة حديثة، فلا زالت هذه القضية مثار جدل حتى الآن، فمن يجب عليه أن يقدم يد العون والمساعدة؟.

(٨) يمكننا أن نقرر، أنه على نحو ما حدث فى العصور القديمة - فى ظل الحضارات الآشورية والبابلية، اليونانية والرومانية - أن الشتات اليهودى ظل يلعب نفس الدور القديم، حيث أنه هو الذى يدعم الوجود السياسى للدولة، ويحافظ عليها وعلى وجودها واستمرارها.

